

**المعالم المنهجية في استعمال الأثر للإمام
ابن كثير
- دراسة تطبيقية في تفسيره -**

د. حسام محمد جمعة
كلية الامام الأعظم (رحمه الله)

الحمد لله، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً. **أما بعد:** فإن أشرف ما يشغل المسلم به عبادة الله تعالى، وأجلها قدراً وأعظمها نفعاً، وأكثرها بركة: العلم الشرعي، فهو الطريق الوحيد لعبادة الله تعالى على بصيرة وهدى. ومن هنا كان لزاماً على كل ذي لب رام السعادة في الدارين وتخليد عمله الصالح في العالمين: أن ينطلق في رحاب العلم والعلماء تعلماً وتعليماً وتأليفاً وتصنيفاً، وخاصة ما يتعلق بكلام ربنا سبحانه وتعالى. ومن المسائل التي كانت جديرة بالبحث هي مسألة استعمال الأثر في معرفة مراد الله تعالى، وبيان منهج العلماء فيها والوقوف على المعالم المنهجية عند كبار المفسرين المعتمدين، ولم أجد من تناولها في مبحث خاص أو بدراسة معينة لذلك اخترت دراستها في هذا البحث وسميتها (المعالم المنهجية في استعمال الأثر للإمام ابن كثير).

وقد جعلت ذلك على مباحث أربعة:

المبحث الأول: الإمام ابن كثير (اسمه، مولده ونشأته، مصادره ومصنفاته، شيوخه، تلاميذه، مصنفاً، ثناء العلماء عليه، وفاته) وفيه مطالب أربعة: الأول: جعلته في اسمه ومولده وحياته:، والثاني: في ت شيوخه وتلاميذه. والثالث في: وُلُفاته، والمطلب الرابع: في وفاته وثناء العلماء عليه.

والمبحث الثاني: جعلته في التعريف بكتابه.

المبحث الثالث: منهجه في التفسير، والتفسير بالأثر، ومصادره

المبحث الرابع: أمثلة لاستعمالات الأثر في تفسيره وفيه مطالب ثلاثة: الأول: جعلته في تفسيره للقرآن بالحديث الشريف:، والثاني: في التفسير بأقوال الصحابة. والثالث في: التفسير بأقوال التابعين مع مراعاة الإيجاز المناسب لهذا البحث من غير إخلال بالغاية التي استقصينا فيها المسألة مع تمهيدات وأحكام و أدلة تستوفي الأمر حقه إن شاء الله تعالى، و المسألة تمامها. سائلين المولى القدير أن يتقبل العمل وأن يبارك الجهد وهو ولي ذلك والقادر عليه.

المبحث الأول للإمام ابن كثير (اسمه، مولده ونشأته، مصادره ومصنفاته، شيوخه، تلاميذه، مصنفاً، ثناء العلماء عليه، وفاته)

المطلب الأول: اسمه ومولده وحياته:

هو الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القرشي الشافعي (١). من أعمال دمشق وكان أبوه من أهل بُصرى وأمه من قرية مجدل وقومه ينتسبون إلى القرشيين. (٢) ولد سنة سبعمائة وقدم إلى دمشق وعمره سبع سنوات بعد وفاة أبيه وعاش تحت رعاية أخيه الأكبر وتعلم الفقه، وصحب ابن تيمية وأخذ عنه وتأثر به، ويظهر ذلك في تفسيره حيث استفاد ابن كثير من ابن تيمية في التفسير كثيراً، وأخذ عن الأصبهاني، وكان ابن كثير ذا ذكاء وشجاعة في قول الحق جيد الفهم والتركيز حتى صار عالماً في التفسير والحديث وغيرهما. صحب الحافظ المزي وتزوج بابنته وسمع عليه أكثر تصانيفه وتتولقت فتاويه إلى كثير من البلاد. (٣)

المطلب الثاني: شيوخه وتلاميذه:

شيوخه: أخذ الإمام ابن كثير عن أئمة أجلاء ذكر الأستاذ سامي بن محمد سلامة محقق كتاب تفسير القرآن العظيم لابن كثير رحمه الله تعالى ثلاثين شيخاً (٤). وأنا هنا سأقتصر على بعض مشايخه مع ترجمة يسيرة لكل شيخ منهم فمنه العون وبه التوفيق.

(١) **المزي** (٦٥٤ هـ - ٧٤٢ هـ): هو الحافظ الكبير جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الملك بن يوسف بن علي بن أبي الزهر الإمام العلامة الحافظ الكبير المزي الشافعي، قال ابن قاضي شهبه: (شيخ المحدثين عمدة الحفاظ أعجوبة الزمان الدمشقي المزي مولده في ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وستمائة بظاهر حلب ونشأ بالمرزة قرأ شيئاً من الفقه على مذهب الشافعي وحصل ظرفاً من العربية وبرع في التصريف واللغة ثم شرع في طلب الحديث بنفسه وله عشرون سنة، توفي سنة ٧٤٢ هـ.

(٢) **الذهبي** (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ): هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قائماز العلامة الحافظ المؤرخ الذهبي أبو عبد الله، له عدة مؤلفات كان يعمل والده بصناعة الذهب، وقد استفاد منه ابن كثير. (٦)

(٣) ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ): هو شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحنبلي، ولد في أسرة عُرفت بالعلم والفضل، وكان جده من أئمة الحنابلة وكان والده عالماً وكان أحمد بن تيمية مُحدثاً وفقهياً وصاحب ذاكرة جيدة، وحفظ قوي واستفاد منه ابن كثير. (٧)

(٤) ابن الشحنة (٦٢٣هـ - ٧٣٠هـ): ابن الشحنة من شيوخ ابن كثير رحمه الله تعالى قال عنه في شذرات الذهب: (فيها - أي سنة ٧٣٠هـ - توفي مسند الدنيا شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن نعمة بن حسن الصالحي الحجار بن الشحنة من قرية من قرى وادي بردا بدمشق انفرد بالرواية عن الحسين الزبيدي وبين سماعه للصحیح وموته مائة سنة وسافر إلى القاهرة مرتين مطلوباً مكرماً ليحدث بها . قال البرزالي: مولده سنة ثلاث وعشرين وستمائة وعمر مائة عام وسبعة أعوام وانفرد بالدنيا بالإسناد عن الزبيدي وكان أمياً) (٨).

(٥) ابن قاضي شهبة (٦٥٣هـ - ٧٢٦هـ): وهو كذلك ممن أخذ عنهم ابن كثير رحمه الله قال عنه ابن حجر: (عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن ذؤيب الأسدي كمال الدين ابن قاضي شهبة ولد سنة ٦٥٣هـ، وسمع من ابن أبي الخير وابن أبي عمر والفخر وابن علان وابن الدرجي وغيرهم ولازم الشيخ تاج الدين الفزاري في الفقه وأخاه شرف الدين في العربية فمهر وأقبل على شغل الطلبة ففاق أقرانه في ذلك حتى انتفع به به جمع جم وكان يشغل الناس في الجامع ويعتكف في شهر رمضان كله إلى أن مات في ذي الحجة سنة ٧٢٦هـ) (٩).

(٦) البرزالي (٦٦٥هـ - ٧٣٨هـ): من مشايخ ابن كثير البرزالي قال عنه الكرمي: (هو الشيخ الإمام الحافظ الثقة الحجة مؤرخ الشام وأحد محدثي الإسلام مفيد المحدثين علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي الأصل الدمشقي صاحب التاريخ الخطير والمعجم الكبير. كان بأسماء الرجال بصيراً وناقلاً لأحوالهم نحرياً، ولد سنة خمس وستين وستمائة بدمشق ومات بخليص محرماً في ثالث ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة. (١٠)

(٧) الزملكاني (٦٦٦هـ - ٧٢٧هـ): ممن أخذ عنهم ابن كثير ابن الزملكاني قال عنه في الرد الوافر: (الشيخ الإمام العلامة قاضي القضاة كمال الدين جمال المناظرين أبو المعالي محمد بن أبي الحسن بن علي بن عبد الواحد بن خطيب زملكاً أبي محمد عبد الكريم بن خلف بن سلطان بن خليل بن حسن بن سعد بن نبهان الأنصاري الشافعي ابن الزملكاني مولده في ليلة الاثنين ثامن شوال سنة ست وقيل سبع وستين وستمائة، وتوفى ليلة السبت السادس عشر من شهر رمضان سنة سبع وعشرين وسبعمائة بمدينة بلبيس وحمل إلى القاهرة فدفن بها تولى مناظرة شيخ الإسلام ابن تيمية غير ما مرة ومع ذلك فكان يعترف بإمامته ولا ينكر فضله ولا بره، قال مرة عن الشيخ تقي الدين كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحداً لا يعرف مثله) (١١). وشيوخ ابن كثير أكثر من أن يتسع المقام لحصرهم وقد أوصلهم محقق كتاب التفسير له إلى ثلاثين شيخاً وبالضرورة أن عددهم أكثر من ذلك بكثير وكتب التراجم مليئة بسير وتراجم هؤلاء الفضلاء رحمهم الله رحمة واسعة.

تلاميذه:

أخذ عن ابن كثير خلق كثير وأئمة أعلام جهابذة لا يكادون يُحصون في كل الفنون وإنني ذاكرة بعض مشاهيرهم.

(١) ابن سند (٧٢٩هـ - ٧٩٢هـ): هو الحافظ شمس الدين أبو العباس محمد بن موسى بن محمد بن سند بن تميم اللخمي المصري، ولد في ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وسبعمائة.

وتفقه قليلاً، وأجازته بالإفتاء ابن كثير، وولي مشيخة الحديث بمناطق كثيرة. (١٢)

(٢) العراقي (٦٢٥هـ - ٨٠٦هـ): أبو الفضل زين العابدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي، ولد سنة خمس وعشرين وستمائة بمصر. وأحب علم الحديث وكان شيوخ عصره يثنون عليه، ومن مؤلفاته الألفية (١٣). توفي سنة ست وثمانمائة.

(٣) ابن حجي (٧٦٧هـ - ٨١٦هـ): هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علاء الحسباني، كان حافظاً لمتون الحديث، وكانت له خصوصية بابن تيمية، ومناضلة عنه، وإتباع له، توفي سنة ست عشرة وثمانمائة. (١٤)

(٤) ابن الحسباني (٧٤٩هـ - ٨١٥هـ): أحمد بن إسماعيل بن خليفة بن عبد العال الدمشقي الشافعي الإمام العلامة الحافظ شهاب الدين أبو العباس مولده في أواخر سنة تسع وأربعين وسبعمائة بدمشق اشتغل وحصل وتفقه بجماعة منهم والده وأجيز بالفتوى وبرع في علم العربية أخذ عن أبي العباس العناني وطلب الحديث بنفسه فقرأ وسمع وكتب الكثير عن شيوخ بلده وغيرهم وتقدم على أقرانه في عدة من فنون العلم وهو شاب مع الذكاء المفرط والذهن الثاقب يستحضر كثيراً سمع بدمشق من عدة من أصحاب الفخر بن البخاري وغيرهم منهم ابن الهبل وابن أميلة

والصالح بن أبي عمر وأخذ عن الحافظين ابن كثير وابن رافع. مات بالصالحية في يوم الأربعاء العاشر من ربيع الثاني سنة خمس عشرة وثمانمائة تغمده الله برحمته. (١٥)

(٥) العجيمي: أحمد بن عبد الله العجيمي الحنبلي النحوي شهاب الدين. قال ابن حجر: أحد الفضلاء الأذكياء أخذ عن ابن كثير ومهر في العربية والأصول ولازم الإقراء والاشتغال في الفنون مات عن ثلاثين سنة بالطاعون في رمضان سنح تسع وثمانمائة. (١٦)

المطلب الثالث: مؤلفاته:

أثرى الحافظ ابن كثير المكتبة الإسلامية بكتب قيمة بل بموسوعات علمية غاية في الجودة تُعبر عن اكتمال أدوات العلم في هذا العالم الرباني وهو إذ يذكر المسألة يستقصيها من جميع أطرافها ولا يكاد يترك ما يحتاج إلى ذكر إلا ذكره. وهي مؤلفات كثيرة مفيدة نافعة تتضح بالبركة والخير وإنني ذاكرة بعضها مستفيدة في ذلك بما أثبتته محقق كتاب تفسير القرآن العظيم. (١٧)

(أ) في علوم القرآن:

١. تفسير القرآن العظيم وهو موضوع دراستنا بحول الله تعالى.
٢. فضائل القرآن.

(ب) في السنة وعلومها:

٣. أحاديث الأصول.
٤. شرح صحيح البخاري.
٥. اختصار علوم الحديث.
٦. جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن.
٧. مسند أبي بكر الصديق، رضي الله عنه.
٨. مسند عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.
٩. الأحكام الصغرى في الحديث.

(ج) في الفقه وأصوله:

١٠. الأحكام الكبرى.
١١. كتاب الصيام.
١٢. أحكام التنبية.
١٣. جزء في الصلاة الوسطى.
١٤. جزء في ميراث الأبوين مع الإخوة.
١٥. المقدمات في أصول الفقه.

(د) في التاريخ والمناقب:

١٦. البداية والنهاية.
١٧. جزء مفرد في فتح القسطنطينية.
١٨. السيرة النبوية.
١٩. مناقب ابن تيمية.
٢٠. مقدمة في الأنساب.

المطلب الرابع: وفاته وثناء العلماء عليه:

توفي الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير بعد حياة حافلة بالعطاء العلمي سنة أربع وسبعين وسبعمائة. (١٨) قال عنه الإمام الذهبي في معجمه: « الإمام المفتي المحدث البار: فقيه متفنن ومحدث متقن، ومفسر نقاد. وقال ابن حجر في الدرر: سمع من ابن الشحنة وابن الزرّاد وإسحاق الأمدى وابن عساكر والمزى وابن الرضى وأجاز له من مصر: الدبوسى والوانى والختنى وغيرهم .. واشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله، فجمع التفسير، وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يكمل، وجمع التاريخ الذى سماه البداية والنهاية وعمل طبقات الشافعية وخرج

أحاديث مختصر ابن الحاجب وشرح البخاري ، ولازم المزي وقرأ عليه تهذيب الكمال وصاهره على ابنته وأخذ عن ابن تيمية ، ففتن بحبه وامتنح بسببه.

وقال عنه ابن حبيب: زعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف وأطرب الأسماع بالفتوى وشفن ، وحدث وأفاد وطارت أوراق فتاويه في البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير .

وقال تلميذه الحافظ شهاب الدين بن حجي : «كان أحفظ من ادركناه لمتون الأحاديث، واعرهم بتخريجها ورجالها وصحيحها وسقيمها وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وكان يستحضر شيئا كثيرا من الفقه والتاريخ قليل النسيان وكان فقيها جيد الفهم صحيح الذهن، يشارك في العربية مشاركة جيدة وينظم الشعر، وما اعرف أنى اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستقدت منه».

وقال ابن حجر : كان كثير الاستحضار ، حسن المفاكحة ، سارت تصانيفه في البلاد في حياته وانتفع بها الناس بعد وفاته. وقد انتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والتفسير والحديث فولى مشيخة أم الصالح بعد موت الذهبي ، ومشيخة دار الحديث الاشرافية بعد موت السبكي مدة يسيرة، ثم أخذت منه. (١٩)

وهو القائل :

نساق إلى الأجل والعين تنظر
ولا زائل هذا المشيب المكدر

تمر بنا الأيام تترى وانما
فلا عائد هذا الشباب الذي مضى

المبحث الثاني التعريف بكتابه

تفسير ابن كثير من أشهر ما دون في التفسير بالمأثور، ويعتبر الكتاب الثاني بعد كتاب ابن جرير الطبري، اعتنى فيه مؤلفه بالرواية عن مفسري السلف. وقد قدم له بمقدمة طويلة هامة تعرض فيها لكثير من الأمور التي لها تعلق واتصال بالقرآن وتفسيره، ولكن أغلب هذه المقدمة مأخوذ بنصه من كلام شيخه ابن تيمية الذي ذكره في كتابه أصول التفسير. وطريقته في تفسيره أنه يفسر الآية بأسلوب سهل واضح، ويذكر وجوه القراءات بدون إسراف، ويشير إلى الإعراب إن كان له تعلق بتفسير الآية ثم يفسر الآية بأية أخرى إن أمكن، ويسرد في ذلك الآيات التي تناسبها، وهذا من قبيل تفسير القرآن بالقرآن، وقد اشتهر ابن كثير بذلك، ثم يذكر الأحاديث المرفوعة المتعلقة بتفسير الآية وما روى عن الصحابة والتابعين في ذلك ويعني بتصحيح الأسانيد أو تضعيفها مع بيان سبب الضعف، وترجيح بعض الأقوال على بعض مع توجيه ذلك. وكثيراً ما نجده ينقل من تفسير ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم وعبدالرزاق وابن عثمة والفخر الرازي وغيرهم ممن تقدمه وقد يتعقب أقوالهم. ومما يمتاز به تفسيره أنه ينبه على ما في تفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات ويحذر منها على وجه الإجمال تارة، وعلى وجه التعيين لبعض منكراتها تارة أخرى، مع نقد أسانيدها ومتونها، ويذكر مناقشات الفقهاء وآرائهم وأدلتهم عندما يشرح آية من آيات الأحكام من غير إسراف ولا استطراد. وبالجملة فإن هذا التفسير من خير كتب التفسير بالمأثور وقد شهد له بعض العلماء فقال السيوطي في ذيل تذكرة الحفاظ والزرقاني في شرح المواهب: إنه لم يؤلف على نمط مثله (٢٠).

المبحث الثالث منهجه في التفسير، والتفسير بالأثر، ومصادره

صار كتاب تفسير القرآن العظيم من أهم المصادر في التفسير بالرواية والدراية للمنهج الذي سار عليه ابن كثير في تفسير القرآن الكريم وقد لخص لنا هذا المنهج في مقدمته لهذا التفسير فيقول رحمه الله تعالى: (فإن قال القائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يُفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبْنَا اللَّهُ وَلَا تُكِنُّ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ٥٥﴾﴾ (٢١)، وقال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَعَلَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٢٢﴾﴾ (٢٢)، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٢٣﴾. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا وإني أوتيت القرآن ومثله

معه» (٢٤)، يعني: السنة. والسنة أيضاً تنزل عليك بالوحي، كما ينزل القرآن؛ إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن. والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: "بم تحكم؟" قال: بكتاب الله.

قال: "فإن لم تجد؟". قال: بسنة رسول الله. قال: "فإن لم تجد؟". قال: اجتهد برأيي. قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدره، وقال الحمد الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله^(٢٥). وهذا الحديث في المسانيد والسنن بإسناد جيد، كما هو مقرر في موضعه. وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدري بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لاسيما علماءهم وكبرائهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه. ^(٢٦) ثم قال في موضع آخر: (إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق ^(٢٧): حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد، قال: عرضتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إله خاتمته، أوقفه عند هؤلاء فيما يرى ابن كثير يقع في آرائهم اختلاف، ولكن ابن كثير ينظر إلى آرائهم نظرة تشبه القداسة ويقول في ذلك حرفياً: فيقع في عبارتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً. أي يحكيها آراء متباينة مختلفة.. والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن فيتقطن اللبيب لذلك. ونحن وإن كنا نشكر ابن كثير على موقفه هذا من آراء التابعين الذي يدل على نزعة طيبة نحو التقريب وتقليل شقة الخلاف فإننا نرى أن التابعين بحكم اصالتهم كانت لهم آرائهم المتباينة. وإذا سألت الآن عن موقف ابن كثير من التفسير بالرأى فإنه يقول: «أما التفسير بالرأى فقد ورد عن السلف ما يدل على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه». وهذا الرأي لابن كثير رأى موفق، أنه لا حرج على من تكلم في التفسير بالرأى ما دام قد استكمل عدة ذلك من اللغة ومن الشرع. وقد طبق ابن كثير منهجه هذا النفيس في كتابه ومن أجل ذلك كان تفسيره من انفس التفاسير، يرجع إليه المحققون وقد استفاد منه الكثيرون فيما بعد فاغترف منه اعترافاً صاحب محاسن التأويل وصاحب تفسير المنار وغيرهم كثير. ^(٢٨)

وقد تطرق ابن كثير لذكر الأحكام الفقهية لكن دون إسراف.

مصادره في التفسير بالأثر:

استفاد الحافظ ابن كثير من مصادر كثيرة للغاية ومتنوعة جداً قال الأستاذ: سامي محمد سلامة محقق كتاب تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (أما مصادر الحافظ ابن كثير في تفسيره فقد سردها الدكتور إسماعيل عبد العال في كتابه "ابن كثير ومنهجه في التفسير" أنقلها هنا حسب ترتيب المواضيع. وسأقل بعض هذه المصادر التي اعتمد عليها ابن كثير في تفسيره ^(٢٩) عن المحقق المذكور:

أولاً: الكتب السماوية:

١. القرآن الكريم.
٢. التوراة، وأشار أنه نقل من نسختين.
٣. الإنجيل.

ثانياً: في التفسير وعلوم القرآن:

(أ) في التفسير:

٤. تفسير آدم بي أبي إياس، المتوفي سنة ٢٢٠هـ أو ٢٢١هـ.
٥. تفسير أبي بكر بن المنذر، المتوفي سنة ٣١٨هـ.
٦. تفسير ابن أبي حاتم، المتوفي سنة ٢٢٣هـ.
٧. تفسير أبي مسلم الأصبهاني (محمد بن بحر) المتوفي سنة ٣٢٢هـ، واسم كتابه "جامع التأويل لمحكم التنزيل".
٨. تفسير ابن أبي نجیح (عبد الله بن يسار الأعرج المكي مولى ابن عمر).
٩. تفسير البغوي (أبو محمد الحسن بن مسعود بن محمد الفراء)، المتوفي سنة ٥١٦هـ، واسم كتابه "معالم التنزيل".
١٠. تفسير ابن تيمية (تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحلیم) المتوفي سنة ٧٢٨هـ، وهو جزء في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾.
١١. تفسير ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي)، المتوفي سنة ٥٩٧هـ، واسم الكتاب "زاد المسير في علم التفسير" وهو مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٢٣، تفسير في أربعة مجلدات.
١٢. تفسير الرازي (محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري أبو عبد الله المشهور بفخر الدين الرازي) المتوفي سنة ٦٠٦هـ.

١٣. تفسير الزمخشري (جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الخوارزمي)، المتوفي سنة ٥٣٨هـ.

١٤. تفسير الطبري، المتوفي سنة ٣١٠هـ.

١٥. تفسير عبد الرزاق الصنعاني، المتوفي سنة ٢١١هـ.

١٦. تفسير القرطبي (أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي)، المتوفي سنة ٦٧١هـ، وتفسيره يسمى "الجامع لأحكام القرآن الكريم".

١٧. تفسير مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وهو جزء مجموع له.

(ب) في علوم القرآن:

١٨. "البيان" لأبي عمرو الداني (الحافظ أبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد المعروف بالداني، ٣٧١ - ٤٤٤هـ).

١٩. "التبيان" لأبي زكريا النووي (محي الدين يحيى بن شرف النووي المتوفي سنة ٦٧٧هـ).

٢٠. جميع مصاحف الأئمة.

٢١. شرح الشاطبية للشيخ شهاب الدين أبي شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي، المتوفي سنة ٦٦٥هـ).

٢٢. فضائل القرآن، لأبي عبيد القاسم بن سلام، المتوفي سنة ٢٢٤هـ.

٢٣. معاني القرآن، للزجاج (أبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، المتوفي سنة ٣١١هـ).

ثالثاً: كتب السنة وعلوم الحديث وشروحه:

(أ) الكتب الستة مضافاً إليها مسند أحمد بن حنبل:

٢٤. الجامع الصحيح للإمام البخاري.

٢٥. صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، المتوفي سنة ٢٦١هـ.

٢٦. سنن أبي داود (سليمان بن الجارود بن الأشعث الأزدي السجستاني)، المتوفي سنة ٢٧٥هـ.

٢٧. سنن الترمذي (الجامع) لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سهل الترمذي، المتوفي سنة ٢٧٩هـ.

٢٨. سنن النسائي (أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي)، المتوفي سنة ٣٠٣هـ، ٩١٥هـ.

٢٩. سنن ابن ماجه (أبي عبد الله محمد بن يوسف بن ماجه القزويني، المتوفي سنة ٣٢٧هـ - ٨٨٦هـ).

٣٠. مسند الإمام أحمد بن حنبل (أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الذهلي)، المتوفي سنة ٢٤١هـ.

(ب) بقية كتب السنة وعلوم الحديث وشروحه:

٣١. أحاديث الأصول للحافظ ابن كثير.

٣٢. عارضة الأحوذ في شرح الترمذي للإمام أبي بكر محمد بن العربي، المتوفي سنة ٥٤٣هـ.

٣٣. الأسماء والصفات للبيهقي (أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي)، المتوفي سنة ٤٥٣هـ.

٣٤. الأربعين الطائفة لأبي الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي الهمداني، المتوفي سنة ٥٥٥هـ.

٣٥. تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف لأبي الحجاج المزي.

٣٦. الأفراد للدارقطني (أبي الحسن علي بن عمر الدارقطني الشافعي) المولود في دار قطن من محال بغداد، ٣٠٦هـ - ٣٨٥هـ.

٣٧. الأمالي، لأحمد بن سليمان النجاد (أبي بكر أحمد بن سليمان بن الحسن الحنبلي المعروف بالنجاد، فقيه محدث، توفي سنة ٣٤٨هـ).

٣٨. الأنواع والتقايم في الحديث لابن حبان (الحافظ محمد بن أحمد بن حبان البستي) المولود في بستان من نواحي سجستان بين هراه وغزنة،

والمتوفي ٣٥٤هـ.

٣٩. التقات لابن حبان.

٤٠. جامع الأصول لابن الأثير (المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، المتوفي ٦٠٦هـ).

٤١. سنن أبي بكر البيهقي.

٤٢. سنن الدراقطني.

٤٣. سنن سعيد بن منصور الخراساني، المتوفي ٢٢٧هـ.

٤٤. الموطأ، للإمام مالك.

٤٥. نوادر الأصول للترمذي واسم الكتاب كاملاً (نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم)، لأبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي.
- رابعاً: مصادره في الفقه وأصوله:
٤٦. الأحكام الكبرى للحافظ ابن كثير.
٤٧. الإرشاد في أصول الفقه، لإمام الحرمين الجويني أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف المتوفى ٤٧٨هـ.
٤٨. الاستتكار لأبي عمر بن عبد البر (يوسف بن عبد البر النمري القرطبي الأندلسي)، المتوفى ٦٤٣هـ.
٤٩. الإملاء للإمام الشافعي.
٥٠. الأم للإمام الشافعي.
٥١. الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصارفها، لأبي عبيد القاسم بن سلام.
٥٢. الإيجاز في علم الفرائض لابن اللبان (أبي الحسين محمد بن عبد الله بن اللبان المصري)، المتوفى ٤٠٢هـ.
٥٣. الإيضاح لأبي علي الطبري (أبي علي الحسن بن القاسم الطبري الشافعي)، المتوفى ٣٠٥هـ، واسم الكتاب (الإيضاح في الفروع).
٥٤. الحواشي للمنذري (الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري زكي الدين أبي محمد محدث فقيه).
٥٥. شرح المذهب للنووي.
٥٦. الشرح الكبير للرافعي (أبي القاسم عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القزويني الرافعي)، المتوفى سنة ٦٢٣هـ.
٥٧. الصلاة للمروزي (أبي عبد الله محمد بن نصر المروزي)، كان من أشهر محدثين في زمانه، توفي ٢٩٤هـ.
٥٨. الصيام لابن كثير.
٥٩. المحلى لابن حزم (أبي محمد بن حزم علي الظاهري)، المتوفى ٤٥٦هـ.
٦٠. النهاية للإمام الجويني، واسم الكتاب (نهاية المطلب في دراية المذهب).
- خامساً: مصادره في التاريخ والسير والتراجم:
٦١. الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر.
٦٢. أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير.
٦٣. أسماء الصحابة للحافظ أبي نعيم الأصبهاني.
٦٤. الإكليل للهمذاني (أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذاني اليمني) المتوفى سنة ٣٣٤هـ.
٦٥. تاريخ الخطيب البغدادي.
٦٦. تاريخ ابن عساكر (علي بن الحسن)، المتوفى سنة ٥٧١هـ.
٦٧. التاريخ الكبير للإمام البخاري.
٦٨. الشفاء للقاضي عياض اليعصب، المتوفى (٥٤٤هـ - ١١٤٩م).
٦٩. الطبقات الكبرى لابن سعد (أبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع، توفي ٢٣٠هـ).
- سادساً: مصادره في علوم اللغة:
٧٠. الجمل لابن القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي.
٧١. الزاهر لابن الأنباري (أبي بكر محمد بن محمد بن بشار المشهور بابن الأنباري، المتوفى ٢٢٨هـ).
٧٢. الصحاح لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، المتوفى ٣٩٣هـ، وقيل: ٣٩٨هـ أو ٤٠٠هـ.
٧٣. الغريب لأبي عبيد القاسم بن سلام.
- سابعاً: مصادره في موضوعات مختلفة:
٧٤. إثبات عذاب القبر للبيهقي.
٧٥. الأذكار للنسائي.
٧٦. الأذكار للنووي.

هذه بعض مصادر ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره، ومن خلال هذا العدد الهائل من المصادر يتضح لنا الجهد العظيم الذي بذله الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في إخراج كتابه.

البحث الرابع أمثلة لاستعمالات الأثر في تفسيره

الحافظ ابن كثير من علماء السنة رواية ودرايةً لذا فإنه كتب تفسيره بقلم محدث ضليع في علم الحديث فإذا نكر حديثاً في تفسيره تعقبه وحكم عليه بالصحة أو الضعف إذا احتاج الأمر إلى ذلك وهذا كثير جداً في تفسيره وقلّ أن تجد تفسيراً مشابهاً لتفسير ابن كثير من هذه الناحية وهذا واضح جليّ لكل ناظر في تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى وسأذكر إن شاء الله تعالى ما يبين منهج ابن كثير في استعمالاته للأثر في تفسيره:

المطلب الأول: تفسيره للقرآن بالحديث الشريف:

من هذا تفسيره لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثَمَّ لَا يَحْدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرْجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (٣٠). قال ابن كثير في تفسير الآية: يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً؛ ولهذا قال: ثَمَّ لَا يَحْدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرْجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً أي: إذا حكموك بطيعونك في بواطنهم لا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، كما ورد في الحديث: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) (٣١). وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة قال: خاصم الزبير رجلاً في شريح من الحرّة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك" فقال الأنصاري: يا رسول الله، أن كان ابن عمك؟ فتلّون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير حقه في صريح الحكم، حين أحفظه الأنصاري، وكان أشار عليها بأمر لهما في سعة. قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} الآية (٣٢). وهكذا رواه البخاري هاهنا أعني في كتاب: "التفسير" من صحيحه من حديث معمر: وفي كتاب "الشرب" من حديث ابن جريج ومعمر أيضاً، وفي كتاب "الصلح" من حديث شعيب بن أبي حمزة، ثلاثتهم عن الزهري عن عروة، فذكره (٤) وصورته صورة الإرسال، وهو متصل في المعنى.

وقد رواه الإمام أحمد من هذا الوجه فصرح بالإرسال فقال: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عروة بن الزبير: أن الزبير كان يحدث: أنه كان يخاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم في شراج الحرّة، كانا يسقيان بها كلاهما، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للزبير: "اسق ثم أرسل إلى جارك" فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله أن كان ابن عمك؟ (٥) فتلّون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر" فاستوعى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه سعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه في صريح الحكم، قال عروة: فقال الزبير: والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثَمَّ لَا يَحْدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرْجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ هكذا رواه الإمام أحمد (٣٣) وهو منقطع بين عروة وبين أبيه الزبير؛ فإنه لم يسمع منه، والذي ينقطع به أنه سمعه من أخيه عبد الله، فإن أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم رواه كذلك في تفسيره فقال: حدثنا يونس بن عبد الله الأعلى، أخبرنا ابن وهب، حدثنا الليث ويونس، عن ابن شهاب، أن عروة بن الزبير حدثه أن عبد الله بن الزبير حدثه عن الزبير بن العوام: أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج في الحرّة، كانا يسقيان به كلاهما النخل، فقال الأنصاري: سرح الماء يَمُر. فأبى عليه الزبير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك" فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمك؟ فتلّون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر" واستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير حقه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه السعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير حقه في صريح الحكم، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية إلا في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثَمَّ لَا يَحْدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرْجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ وهكذا رواه النسائي من حديث ابن وهب به (٣٤)،

ورواه أحمد والجماعة كلهم من حديث الليث به (٣٥)، وجعله أصحاب الأطراف في مسند عبد الله بن الزبير، وكذا ساقه الإمام أحمد في مسند عبد الله بن الزبير، والله أعلم. والعجب من الحاكم أبي عبد الله النيسابوري، فإنه ورى هذا الحديث من طريق ابن أخي ابن شهاب، عن عمه، عن عروة، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير فذكره، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. فإنني لا أعلم أحداً قام بهذا الإسناد عن الزهري يذكر عبد الله بن الزبير، غير ابن أخيه، وهو عنه ضعيف. (٣٦) وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن علي أبو دُحَيْم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا الفضل بن دُكين، حدثنا ابن عُيَيْنة، عن عمرو بن دينار، عن سلمة - رجل من آل أبي سلمة - قال: خاصم الزبير رجلاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ففضى للزبير، فقال الرجل: إنما قضى له لأنه ابن عمته. فنزلت ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ الآية (٣٧). والمثال هذا يبين لنا تماماً فنَّ الصنعة الحديثية عند ابن كثير وتمكنه من هذا العلم. ثم قال آخر على تفسير ابن كثير للقرآن بالسنة: قال ابن كثير: في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٣٨). قال البخاري: قال ابن عباس الأنفال: الغنائم: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، أخبرنا هُشَيْم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبيرة، قال: قلت لآبِمْ عباس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر (٣٩). أما ما علَّقه عن ابن عباس، فكذلك رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: "الأنفال": الغنائم، كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة، ليس لأحد منها شيء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادة، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد أنها الغنائم. وقال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: الأنفال: الغنائم، قال فيها لبيد:

وبإذن الله زبني وعجل

إن تقوى ربنا خير نفل

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن "الأنفال"، فقال ابن عباس، رضي الله عنهما: الفرس من النفل، والسلب من النفل. ثم عاد لمسألته، فقال ابن عباس ذلك أيضاً. ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه ما هي؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتى كاد يُجرجه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا، مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب. (٤٠) وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس: كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إذا سئل عن شيء قال: لا أمرك ولا أنهاك. ثم قال ابن عباس: والله ما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم إلا زاجراً أمراً محلاً محرماً. قال القاسم: فسُئل على ابن عباس رجل يسأله عن الأنفال، فقال ابن عباس: كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه. فأعاد عليه الرجل، فقال له مثل ذلك، ثم أعاد عليه حتى أغضبه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب، حتى سألت الدماء على عقبه - أو على: رجله فقال الرجل: أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك. (٤١) وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس: أنه فسر النفل بما ينقله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه، بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم. وقال ابن أبي نجيج، عن مجاهد: إنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخمس بعد الأربعة الأخماس، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ (٤٢). وقال ابن مسعود ومسروق: لا نفل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف. رواه ابن أبي حاتم (٤٣) عنهما. وقال ابن المبارك وغير واحد، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، فهو نفل للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع به ما يشاء. وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالنفيء، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال. وقال ابن جرير: وقال آخرون: هي أنفال السرايا، حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا علي بن صالح بن حيي قال: بلغني في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال: السرايا. (٤٤) ويعني هذا: ما ينقله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، وقد صرح بذلك الشعبي، واختار ابن جرير أنها الزيادات على القسم، ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية، وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الشيباني، عن محمد بن عبد الله الثقفي، عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر، وقتل أخي عُمر، وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى "ذا الكتيفة"، فأتيت به نبي الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "أذهب فاطرحه في القبض". قال: فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي. قال: فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أذهب فخذ سيفك" (٤٥). وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو

بكر، عن عاصم بن أبي النجود، عن مصعب بن سعد، عن سعد بن مالك قال: قال يا رسول الله: قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف. فقال: "إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه" قال: فوضعت، ثم رجعت، قلت: عسى أن يعطي هذا السيف اليوم من لا يبلي بلائي! قال: رجل يدعوني من روائي، قال: قلت: قد أنزل الله في شيئاً؟ قال: "كنت سألتني السيف، وليس هو لي وإنه قد وهب لي، فهو لك" قال: وأنزل الله هذه الآية: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ } . ورواه (٤٦) أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن أبي بكر بن عياش، به وقال الترمذي: حسن صحيح. وهكذا رواه أبو داود الطيالسي: أخبرنا شعبة، أخبرنا سماك بن حرب، قال: سمعت مصعب بن سعد، يحدث عن سعد قال: نزلت في أربع آيات: أصبت سيفاً يوم بدر، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: نَقَلْنِيهِ. فقال: "ضعه من حيث أخذته" مرتين، ثم عادوته فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ضعه من حيث أخذته"، فنزلت هذه الآية: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ } (٤٧). وتمام الحديث في نزول: { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا } (٤٨) وقوله تعالى: { إِنَّمَا الْحُمُرُ وَالْمَيْسِرُ } (٤٩) وآية الوصية. وقد رواه مسلم في صحيحه، من حديث شعبة، به. (٥٠) وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول: أصبت سيف ابن عائد يوم بدر، وكان السيف يدعى بالمرزبان، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفل، أقبلت به فألقيته في النفل، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمنع شيئاً يسأله، فرآه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه إياه (٥١). ورواه ابن جرير من وجه آخر. (٥٢)

المطلب الثاني: التفسير بأقوال الصحابة:

والصحابه هم الذين رأوا النبي صلى الله عليه وسلم وسمعوا منه. والصحابة كانوا إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله سبحانه وتعالى ولم يجدوا شيئاً في السنة اجتهدوا في التفسير برأيهم، لأنهم يعرفون العربية ويحسنون فهمها وقد اشتهر منهم الخلفاء الأربعة، وابن مسعود وابن عباس وأنس وهناك روايات منسوبة إلى هؤلاء في مواضع متعددة من تفسير القرآن بالمأثور، وتتفاوت درجاتها من السند صحة وضعفاً، وذهب العلماء إلى أن قول الصحابي يؤخذ به إذا كان متعلقاً بأسباب النزول وما ليس للرأي فيه مجال وذلك لأن الصحابة فهمهم للعربية صحيح وقد شاهدوا القرائن ولسانهم عربي خالص، مما يساعدهم على صحة الفهم. (٥٣) وقد أخذ ابن كثير بأقوال الصحابة ومن ذلك تفسيره لقوله سبحانه وتعالى: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَلُهَا } (٥٤). قيل: نزلت في قريش كانوا يسألون عن وقتها وفي الحديث الذي أورده ابن كثير حديث عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وجمع بين أصبعيه (٥٥). وكذلك حديث عن أنس بن مالك رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: أن من أشرط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويفشو الزنا، ويشرب الخمر، وتكثر النساء، ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد. (٥٦) ويشهد لأخذ بآبٍ كثير بتفسير الصحابة مروياته الكثيرة، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من ذلك: قال ابن كثير: وقوله تعالى: { وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ } (٥٧) قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. (٥٨) ومن ذلك ما نقله ابن كثير في قوله تعالى: { قَالَ تَعَالَى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } (٥٩) قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبي صلى الله عليه وسلم، والاستغفار، فذهب النبي صلى الله عليه وسلم وبقي الاستغفار. ومن ذلك ما رواه ابن كثير عن ابن عباس في قوله تعالى: { قَالَ تَعَالَى: إِلَّا تَفْرُوا يُعَذِّبَكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } (٦٠) قال ابن عباس: استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً من العرب، فتتأقلاوه، فامسك الله عنهم القطر فكان عذابهم. ويشهد أيضاً لأخذ ابن كثير بتفسير الصحابة رضي الله تعالى عنهم قول ابن عمر رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: { قَالَ تَعَالَى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } (٦١) حيث قال ابن كثير: (وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمة الذي يعلم الناس دينهم) (٦٢). واهتم ابن كثير غاية الاهتمام بنقل تفسير الصحابة رضي الله عنهم يضيّق المقام عن ذكر المزيد من هذه الروايات في التفسير.

المطلب الثالث: التفسير بأقوال التابعين:

التابعون هم الذين لم يقابلوا الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يسمعوا منه بل أخذوا عن الصحابة. وقد اختلف العلماء (٦٣) في حكم الرجوع إلى تفسير التابعي للآية إذا لم يرد تفسير لها عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من أصحابه رضي الله عنهم: فقال طائفة منهم ابن عقيل ورواية عن الإمام أحمد وشعبة إنه لا يجب الأخذ بتفسير التابعي لأنهم:

١. ليس لهم سماع من الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يمكن أن يحمل تفسيرهم على أنهم سمعوه من الرسول صلى الله عليه وسلم كالصحابه.

٢. أنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد وظن ما ليس بدليل دليلاً.

٣. أن عدالة التابعين غير منصوص عليها كما نُصَّ على عدالة الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

وقالت طائفة هم أكثر المفسرين: إنه يؤخذ بقول التابعين في التفسير إذا لم يجد تفسيرها في السنة ولا في أقوال الصحابة رضي الله عنهم لأنهم تلقوا التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم وحضروا مجلسهم ونهلوا من علمهم وسمعوا منهم ما لم يسمعه غيرهم فقد عرض مجاهد المصحف على ابن عباس ثلاث مرات يسأله عن كل آية كما نقل عنه ذلك. والرأي الراجح أنه إذا أورد التفسير عن تابعي ولم يعرف له مخالف من التابعين فهذا مما ينبغي الأخذ به وتقديمه على غيره لما لهم من فضل ومزية على من بعدهم في العالم. وقد نقل ابن كثير عن التابعين كثيراً من تفسيرهم لاسيما عن كبارهم وساداتهم كمجاهد وغيره قال ابن كثير: (إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجح كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح، عن مجاهد، قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن غنام، عن عثمان المكي، عن أبي مليكة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواح، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله. ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، بحسبها من لا علم عنده اختلافاً فحكيها أقوالاً وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتقطن اللبيب لذلك، والله الهادي (٦٤). وسأذكر نماذج من تفسير التابعين في تفسير ابن كثير للتدليل على أخذه بتفسيره التابعين رحمهم الله تعالى. فمن ذلك ما نقله عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: { حَتَرَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } وقال ابن جريج: قال مجاهد: قَالَ تَعَالَى: ﴿ حَتَرَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ (٦٥) قال: نبئت أن الذنوب على القلب تحف به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم. قال ابن كثير: وقوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ (٦٦) قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمي وفيما سوى ذلك، فجر لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأنجاهم من عبودية آل فرعون. وقال ابن كثير في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا شَيْءَ فِيهَا ﴾ (٦٧) قال مجاهد: لا بياض ولا سواد. وذكر ابن كثير عن مسروق بن الأجدع في قول الله تعالى: { على صلواتهم يحافظون } لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس، فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة، وإفراطهن: إضاعتهن عن وقتهن. قال ابن كثير: وقوله: ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخِذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٦٨) قال قتادة أي: ما كنا فاعلين. وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَلَّمَآ أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٦٩) قال الضحاك: سقوفها، أي: قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها. (٧٠) هذا وقد سُقَّتْ نماذج من تفسير التابعين مما نقله عنهم ابن كثير والمقام يضيّق عن ذكر المزيد من تفسيرهم رحمهم الله تعالى.

الهوامش

- ١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن العماد الحنبلي، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون ت، ج ١، ص ٢٣١.
- ٢- مسند الفاروق أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب وأقواله على أبواب العلم، إسماعيل بن عمر بن كثير، ط ٢، دار الوفاء للنشر، المنصورة، ١٩٩٢م، ص ٤٠ - ٥١ بتصرف.
- ٣- شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، ج ٢، ص ٢٣١ بتصرف.
- ٤- انظر مقدمة تحقيق تفسير ابن كثير، سامي سلامة، ١ / ١٢.
- ٥- شذرات الذهب، ٦ / ١٣٦.
- ٦- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد عثمان الذهبي، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، ج ١، ص ١٦.
- ٧- البداية والنهاية، ابن كثير، ج ١٣، ص ٢٤١.
- ٨- شذرات الذهب، ٦ / ٩٣.

- ٩- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، دار النشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيد آباد - الهند، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م، الطبعة الثانية، تحقيق: /مراقبة: محمد عبد المعيد ضان. ٢٣٩ / ٣.
- ١٠- الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، مرعي بن يوسف الكرمني الحنبلي، دار الفرقان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤ هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف.
- ١١- الرد الوافر، محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين دمشقي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٣ هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: زهير الشاويش، ٥٦ / ١.
- ١٢- ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي، أبي المحاسن الحسيني دمشقي، دار الفكر العربي، حيدر آباد، ١٣١٣ هـ، ص ٣٦٨.
- ١٣- المصدر السابق، ص ٣٧٠.
- ١٤- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، إسماعيل باشا البغدادي، دار الفكر، بغداد، بدون طبعة، ١٩٨٢ م، ج ٦، ص ١٧٧.
- ١٥- لحظ الأبحاث بذيل طبقات الحفاظ، الحافظ أبو الفضل تقي الدين محمد بن محمّد بن فهد الهاشمي المكي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٤٥ / ١.
- ١٦- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، المكتبة العصرية، لبنان - صيدا، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ١ / ٣٢٠.
- ١٧- مقدمة تحقيق تفسير القرآن العظيم، لسامي سلامة، ١ / ١٥.
- ١٨- شذرات الذهب، ابن العماد، ج ٦، ص ٢٣٠.
- ١٩- مناهج المفسرين، للدكتور/ منيع عبد الحليم محمود، دار الكتاب المصرية - القاهرة، ص ٢٢٦ - ٢٢٨.
- ٢٠- التفسير بالأثر والرأي وأشهر كتب التفسير فيهما، د/ عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الوهبي، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٧، ص ٢٠٠ - ٢٣٧. انظر رابط المقال على شبكة الألوكة: <https://www.alukah.net/sharia/0/352/#ixzz6aXxgKTzi>
- وراجع: التفسير والمفسرين، للذهبي، (١ / ٢٤٧).
- ٢١- سورة النساء، الآية ١٠٥.
- ٢٢- سورة النحل، الآية ٤٤.
- ٢٣- سورة النحل، الآية ٦٤.
- ٢٤- رواه أحمد بن حنبل في المسند، عن المقداد بن معد يكرب الكندي، ٤ / ١٣٠.
- ٢٥- المنتخب من مسند عبد بن حميد، تأليف: عبد بن حميد بن نصر أبو محمد الكسي، مكتبة السنة - القاهرة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، الطبعة الأولى، تحقيق: صبحي البديري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي، ص ٧٢.
- ٢٦- تفسير القرآن العظيم، ٧ / ١.
- ٢٧- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥ هـ، ٢ / ٢٩٥.
- ٢٨- مناهج المفسرين، لمنيع عبد الحليم محمود، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.
- ٢٩- مقدمة تحقيق تفسير القرآن العظيم لابن كثير، للأستاذ محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، ١ / ١٩ وما بعدها.
- ٣٠- سورة النساء، الآية ٦٥.
- ٣١- مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥ م، الطبعة الثالثة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ١ / ٥٩.
- ٣٢- صحيح البخاري، ٢ / ٨٣٢.
- ٣٣- المسند ١ / ١٦٥.
- ٣٤- سنن النسائي، ٨ / ٢٣٨.

- ٣٥- المسند ٤ / ٤. وصحيح البخاري برقم (٢٣٥٩). وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٧)، وسنن أبي داود برقم (٣٦٣٧)، وسنن الترمذي برقم (١٣٦٣) وسنن النسائي (٨ / ٢٤٥). وسنن ابن ماجة برقم ١٥.
- ٣٦- المستدرک، ٣ / ٣٦٤.
- ٣٧- ورواه الحميدي في مسنده برقم (٣٠٠). وسعيد بن منصور في سننه برقم (٦٦٠) من طريق سفيان بن عيينة به مراسلاً.
- ٣٨- سورة الأنفال، الآية ١.
- ٣٩- ٤ / ١٧٠٣.
- ٤٠- تفسير الطبري، ١٣ / ٣٦٤.
- ٤١- تفسير عبد الرازق (١ / ٢٣١) وصيغ هو "ابن عسل" ويقال "ابن سهل" التميمي، انظر قصته في الإصابة ٢ / ١٩٨.
- ٤٢- رواه الطبري في تفسيره، ١٣ / ٣٦٥.
- ٤٣- تفسير ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، المكتبة العصرية، صيدا، أسعد محمد الطيب، ٥ / ١٦٥٢.
- ٤٤- تفسير الطبري، ٩ / ١٦٩.
- ٤٥- مسند الإمام أحمد ١ / ١٨٠.
- ٤٦- المسند ١ / ١٧٨. وسنن أبي داود برقم ٢٧٤٠. وسنن الترمذي برقم ٣٠٧٩. والنسائي في السنن الكبرى برقم ١١١٩٦.
- ٤٧- مسند أبي داود الطيالسي برقم ٢٠٨. سليمان بن داود الفارسي البصري الطيالسي، دار المعرفة، بيروت.
- ٤٨- سورة العنكبوت، الآية ٨.
- ٤٩- سورة المائدة، الآية ٩٠.
- ٥٠- صحيح مسلم، برقم ١٧٤٨.
- ٥١- رواه الطبري في تفسيره ١٣ / ٣٧٤.
- ٥٢- تفسير ابن كثير، ٤ / ٦ وما بعدها.
- ٥٣- مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير، سامي محمد هشام حرير، ط ١، دار البداية، عمان، ٢٠٠٧م، ص ٢٨، بتصرف.
- ٥٤- سورة النازعات، الآية ٤٢.
- ٥٥- سنن ابن ماجة، حديث رقم ٤٠٣٠.
- ٥٦- سنن الترمذي، حديث رقم ٢١٣١، ج ٦، ص ٢٠٥٥.
- ٥٧- سورة الأنفال، الآية ٢٤.
- ٥٨- تفسير ابن كثير، ٤ / ٣٥.
- ٥٩- سورة الأنفال، الآية ٣٣.
- ٦٠- سورة التوبة، الآية ٣٩.
- ٦١- سورة النحل، الآية ١٢٠.
- ٦٢- المصدر نفسه، ٤ / ٦١١.
- ٦٣- انظر في ذلك التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، ط ٢٠٠٠م، ١ / ٩٦.
- ٦٤- تفسير ابن كثير، ١ / ١٠.
- ٦٥- سورة البقرة، الآية ٧.
- ٦٦- سورة البقرة، الآية ٤٠.
- ٦٧- سورة البقرة، الآية ٧١.
- ٦٨- سورة الأنبياء، الآية ١٧.
- ٦٩- سورة الحج، الآية ٢٢.
- ٧٠- تفسير ابن كثير، ٥ / ٤٣٨.